المؤمنين أو أفضل من قول المصلي: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أو أفضل من قول القائل بظهر الغيب: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ...» الآية؟ لا أحد إن شاء الله يقول هذا. وأيضا يجوز أن يكون المسلم على الرسول أو على غيره من الأنبياء والصالحين بظهر الغيب ما هو أفضل من الزائر لهم السلام على من سلم عليهم مثل أن يكون عليهم شفاعتهم وأن يكونوا الشفعاء يوم القيامة. وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «وإذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة ...» ... حلت عليه الشفاعة ... فالذين يدعون للرسول صلى الله عليه بالوسيلة تحل عليهم شفاعته. والشفاعة لمن دعا له عليه السلام بالوسيلة هي من الجزاء بجنس العمل لأنه شفاعة وسؤال الوسيلة ... الدعاء فهما من جنس واحد، والعامل أيضا يجزى في شرع الله وحكمته وعدله بمثل عمله وبأفضل منه. ولا ريب في أن المسلمين بالسلام على الرسل والأنبياء والصالحين والدعاء لهم بظهر الغيب من الإحسان ومن البر فهو يمدهم بالجزاء والثواب. فالثواب حاصل واقع من الله ومن رسله بالشفاعة والدعاء حرب لا محالة فهو عكس ما ذكره من يزعم زاعم بأن السلام على رسل الله وأنبيائه وعباده الصالحين في وجه قبورهم أفضل من السلام عليهم في حالة البعد والنأي عنهم كما لو عكس أن يزعم زاعم بأن الصلاة على الرسول عند قبره أفضل من الصلاة عليه في تشهد الصلاة وفي المواضع التي تطلب فيها الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم لأن لكل ذلك جزاء والله لا يضيع أجر من أحسن عملا سواء أكان قد سلم عليه في القبر أم كان بعيدا عنه. وقد تقدم أن أئمة آل البيت النبوي كانوا ينهون أو يمنعون القبر أشد النهي ويدعون عنده بالحديث: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء، وأوردوا قوله عليه السلام: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبري عيدا وصلوا علي فإن صلاتكم

تبلغني» وهذا صريح في المسألة في كل الصراحة بل هو نص لا يجوز النزاع فيه.
∴ ثم قيل أيضا: لو بطل كل ما تقدم لما دل ما ذكر على استحباب السفر إلى القبور لأجل السلام على أصحابها رغبة في ردهم السلام على المسلم عليهم. وذلك لأنه يمكن أن يقال: نعم إن رد الأنبياء والصالحين على من سلم عليهم عند قبورهم فضيلة عظيمة وأمر يسعى إليه ويطلب ويحرص عليه ولكن يجوز أن يعارض هذه الفضيلة شيء آخر ومحذور أعظم يقضي بأن يهمل السعي إليه والعمل له ولا يدرك بأن يكون مانعا له مما يقتضيه المانع والمقتضي. ومن المتدافع المصلحة والمفسدة أو الخير والشر فيقدم ما فيه اجتناب المفسدة واتقاء الشر. وهذا الشيء من القضايا الدينية والعقلية والاجتماعية المعروف معلومة لا ينكره منكر، فقد يجوز بل هذا شيء واقع لا ريب فيه أن يكون في شد الرحال والسفر إلى قبور الأنبياء والصالحين لأجل أمر أرادوا حصوله من ردهم السلام على من يسلم عليهم مفاسد شتى في العقيدة وغيرها من قرب أو بعد بل تفسدها فتكون هذه المفاسد قاضية بإلغاء طلب هذه الفضيلة والعمل لها وقاضية بالاستغناء إليها. وهذا الأمر ونحوه لا تعد المسألة ليست من المسائل المعلومة بالنصوص من الآيات أو الأحاديث حتى يقال كيف يترك النص عملا بالنظر والاستنباط والاحتمال ونحوها. ليس نصا بل النص في المنع وهو ... : لا تشد الرحال ... الحديث مع بقية الأحاديث الآنفة. هذا كله مع قرب تعارضهم شيء من العقليات ولا من النقليات، فالاعتراض المذكور إذن باطل.

ومن الدلائل الدالة أيضا على تحريم السفر وشد الرحال إلى القبور ما قرأناه في فصول هذا الكتاب من تحريم اتخاذ القبور أعيادا ومساجد ومعابد وتحريم العكوف عليها وكثرة الدعاء فيها والانتياب لها والشوق إليها. فليراجع كل ما تقدم هذا البحث مما يدل على تحريم شد الرحل وتحريم السفر إلى غير المساجد الثلاثة ...